المرأة في أدب الرافعي

للمرأة في أدب الرافعي مكانة كبرى وهذه المكانة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة الرافعي، وتمتّ بحبل وثيق إلى شخصيته النابغة التي تعاورت على تكوينها أسباب عديدة، منها أنه كاتب إسلامي أصيل ضرب بسهم وافر من الثقافة العربية الإسلامية الزاهرة التي ما فتئت تعتبر المرأة والرجل وجهين لعملة واحدة، أو هما سيّان لقوس متقنة صناعتها، لكل منهما وظيفته التي خلقه الله لها كل فيما رسم له، فلا غنى لأحدهما عن صاحبه، ولا مناص لهما من السير على طريق دقيقة غاية في الدقة، وكيف لا تكون كذلك وواضعها هو خالق هذا الكون وبارئه؟! ومنها أن الرافعي قد أوتي نَفَساً مرهفةً شاعرة، وإحساساً رقيقاً مبدعاً بما حوله، هذه الخاصة التي أوتيها كثير من عباقرة الفن ومبدعيه تجعل الإنسان ذا حس مضاعف وفهم ثاقب يستشف الأشياء وما وراءها، فينقل لنا مايراه بصورة أكثر عمقاً وإشراقاً.

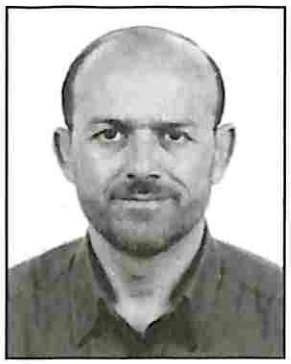

بقلم : خيرالله الشريف*
سورية

كما هو الأمر عند كل مسلم حقيقي ينظر الرافعي إلى المرأة بمنظار إنساني قبل كل شيء، فكما أن الإنسان مكرم بالفطرة، ذو مكانة سامية تترجمها كثير من النصوص الإسلامية التي بين أيدينا، فإنه لا يخرج في أدبه عن إعطاء هذه الصورة الواضحة دائماً، فيرى أن المرأة هي الإنسانية في نصف الإنسان، وهذه الصورة هي صورة المثل الأعلى للإنسانية، وقد رآها الرافعي متمثلة بدقة في زوجات النبيﷺ، يقول في (فلسفة المال): "ثم قال الإمام: وأنا دخلت على أزواج رسول اللهﷺ، ورأيتهن في دورهن يقاسين الحياة، ويعانين من الرزق ماشحّ درّه، فلا يجيء إلا كالقطرة بعد القطرة، وهن على ذلك، ما واحدة منهن إلا هي ملكة من ملكات الآدمية كلها، وما فقرهن إلا كبرياء الجنة نظرت إلى الأرض فقالت: لا... ! يجاهدن مجاهدة كل شريف عظيم النفس، همه أن يكون الشرف أو لا يكون شيء"(١).

وهو يريد بهذا المثال أن يعطي صورة للمرأة الفضلى المسلمة التي تسامت بأنوثتها، فجعلتها نبراساً لبنات جنسها، تحضّهنّ على تمكين صفات الخير في نفوسهن، وتربية الأخلاق الفاضلة التي ستكون عدة لهن في حياتهن مع الرجال قبل أن تكون لهن ذخراً يوم القيامة، فيقول: "كانت أنوثتهن أبداً صاعدة متسامية فوق موضعها بهذه القناعة وبهذه التقوى، ولا تزال متسامية صاعدة، على حين تنزل المطامع بأنوثة المرأة دون موضعها، ولا تزال أنوثتها تنحدر ما بقيت المرأة تطمع، ورب ملكة جعلتها مطامع الحياة في الدرك الأسفل، وهي باسمها في الوهم الأعلى...!"(٢).

وبما عهد عنده من أسلوب الإقناع بالحجة والبرهان والتحليل يستشهد الرافعي بالحديث النبوي الشريف، ويتابع الشرح والتفسير بدقة متناهية وأسلوب لا يملك المرء أمامه إلا التسليم والقبول، فهو يستشهد على الفكرة التي يطرحها مستنبطاً الفكرة التي يؤمن بها، كقضية التبرج التي يجعلها مخالفة لطبيعة المرأة التي فطرت على كونها تميل إلى رجل واحد هو زوجها، فاهتمام المرأة بإظهار زينتها بإسراف، ولمن حرم الله عليها التزين أمامهم هبوط بمستواها إلى الفساد والضعة، ثم إن أزواج النبيﷺ اللواتي هن المثل الأعلى الذي يجب على كل مسلمة اتخاذه أُسوة حسنة كن في الحشمة والوقار بالغات الغاية، فيقول: "وقد روينا عن النبيﷺ أنه قال: اطلعت في الجنة فإذا أقل أهلها النساء، فقلت: أين النساء؟ قال: شغلهن الأحمران؛ الذهب والزعفران. أي الطمع في الغنى، والعمل له، والميل إلى التبرج والحرص عليه. ونفس الأنثى ليست أنثى، ولكن شغلها بذلك التبرج وذلك الحرص وذلك الطمع، هو يخصصها بخصائص الجسد ويعطيها من حكمه وينزلها على إرادته، وهذه هي المزلّة، فتهبط المرأة أكثر مما تعلو، وتضعف أكثر مما تقوى، وتفسد أكثر مما تصلح، إن نفس الأنثى لرجل واحد، لزوجها وحده. رأيت أزواج النبي ﷺ فقيرات مقتوراً عليهن في الرزق غير أن كلاً منهن تعيش بمعاني قلبها المؤمن القوي في دار صغيرة فَرَشَتْها الأرض"(٣).

وللرافعي قدرة فائقة على تحليل طبيعة المرأة ووظيفتها، فهو يصور دخيلتها تصويراً دقيقاً هو دائماً أو غالباً يصيب الحقيقة، ثم يستخدم الفلسفة في بسط فكرته مما يعطي كتاباته إعجاباً كبيراً مدهشاً، من ذلك حديثه عن ضعف المرأة،

* مدير مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق.

وما يرسمه من تصرفها مع الرجل وعلاقة ذلك بالأخلاق والفضيلة والفكرة الإسلامية الصائبة التي تأخذ بعين الاعتبار هذه الطبيعة الرقيقة المرهفة للمرأة بما يتناسب مع الحياة الأسرية في مملكتها البيتية ومايتعلق بذلك من حجاب وغيره، فمن هذا مقالته (زوجة إمام) التي يقول فيها: "والمرأة ضعيفة بفطرتها، وهي على ذلك تأبى أن تكون ضعيفة أو تقر بالضعف إلا إذا وجدت رجلها الكامل، رجلها الذي يكون معها بقوته وعقله وفتنته لها وحبها إياه... فإذا لم تصب المرأة رجلها القوي لم تستطع أن تكون معه في حقيقة ضعفها الجميل، وعملت على أن يكون هو الضعيف، وبهذا تخرج من حَيِّزها، ومأأول خروج النساء إلى الطرقات إلا هذا المعنى، فإن كَثُر خروجهن في الطريق. وتسكعن هاهنا وهاهنا فإنما تلك صورة من فساد الطبيعة فيهن ومن إملاقها..."[٤].

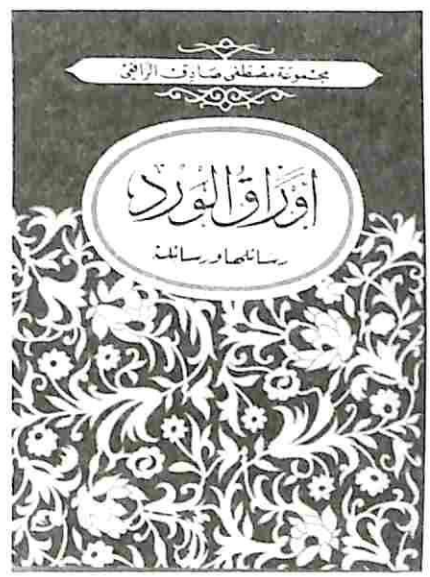

المرأة .. أماً

لعل تلك النظرة الإنسانية الرقيقة التي نظر بها الرافعي إلى المرأة، واتخاذه من أمهات المؤمنين مثلاً أعلى ونبراساً للبشرية قد وطّد القدسية التي أحاط بها هالة الأم التي جعلها عنواناً للمرأة ومكانة لا تنازعها فيها مكانة على الإطلاق كما يُستَشَف من قوله[٥]:

اجْثُ خُضُوعاً واحتراماً لمن
أمُّكَ في حوّاء من أمهّا
ألا ترى الجنَّةَ فيما رَوَوْا
مطلوبةً من تحتِ أقدامِها

وفي قصيدته (الشرق المريض) جاءت الدعوة الإنسانية مع الدعوة الإسلامية إنصافاً للمرأة ورفعاً لمكانتها الاجتماعية إلى الأمومة الراعية، فتربية المرأة وإعداد الأم هو المنطلق الذي يبدأ الحياة في الشرق المسلم عندما يقول[٦]:

ربُّوا لذا الشرق يا قومي ممرضةً
تحنو عليه بإحساسٍ ووجدانِ
ربُّوا له الأمَّ يا قومي فلو وُجدتْ
في الشرق ما طاحَ في ذُلٍّ وإهوانِ
تلك التي ترفعُ الدنيا وتحفضُها
بطفلِها فهو والدُّنيا بميزانِ

والرافعي الذي أوتي من القدرة على الوصف فناً، ومن تصوير خوالج النفوس روعة استطاع أن يسكب في مقالته (موت أم) من إبداعه، فأخذ يصور طفلاً قد فقد أمه وهو في عالمه الطفولي البريء يشعر بضخامة الرزء الذي ابتلي به، فهو يظهر ما للأم من رباط وثيق بولدها، ومدى حاجته إليها فيقول: "تبارك الذي جعل في قلب الأم دنيا من خلقه هو، ودنيا من خلق أولادها! تبارك الذي أثاب الأم ثواب ماتعاني، فجعل فرحها صورة كبيرة من فرح صغارها!.. انتهت- أيها الطفل المسكين- أيامك من الأم: هذه الأيام السعيدة التي كنت تعرف الغد فيها قبل أن يأتي معرفتك أمس الذي مضى... الأم...؟ ياإلهي، أي صغير على الأرض يجد كفايته من الروح إلا في الأم؟!"[٧].

المرأة .. حبيبةً

إن ذروة أدب الرافعي وعقدة حياته الفكرية والأدبية شيء واحد هو الحب، وقد قاده هذا إلى ابتداع لون جديد من فلسفة الحب والجمال في الأدب العربي كان فيه "مخلصاً لأمانته وفنه، فقد كان يسكب روحه على الورق، ويصدر عن نفس مؤمنة عميقة الإيمان والاقتناع"[٨].

وهذا الحب البنّاء يشير إليه الرافعي في مقدمة (أوراق الورد) فيقول:

"وتاريخ الحب عند صاحب هذه الرسائل كان كله نظرة أخذت تنمو وبقيت تنمو،... وهو حب قد كان من نمائه وجماله وطهره كأنما أزهرت به روضة من الرياض لا امرأة من النساء..."[٩] فأنت لاتجد في هذه الرسائل معاني النساء متمثلة في امرأة تتصبى رجلاً، ولكن معاني الحب والجمال متألهة في إنسانية تستوحي من إنسانية أو توحي لها"[١٠].

لذلك يؤكد الرافعي هذا السمو في الحب عند المسلم عندما يقارن ماهو فيه من طهر مع ما عليه الشهوانيون الخلّص الذين يفهمون الحب ممارسة لاشعوراً من كتّاب أوربا الذين تسترقهم أهواؤهم فيذلون لها خانعين، فيقول: "وصاحب هذه الرسائل يرى نفسه في الحب كأنما وضع على هامش الناس، منطلقاً غير مقيد، عزيزاً غير ذليل، فهو كالسطر الذي يكتب على هامش الصفحة يستعرض ماملأها بين أعلاها وأسفلها.. يتجافى بها عن ألفاظ الشهوات ومعانيها مما يتعمده بعض فحول الكتاب في أوربا، ولا طلاوة لرسائلهم وقصصهم بغيره، إذ هو يشبه أن يكون روح اللحم والدم في اللغة، ويتوَخّون التأثير من أقرب الطرق إليه، فيَمَسّون شهوات القراء بالحادثة والوصف والعبارة كما يدر لعاب الجائع على ألفاظ الطعام وأوصافه ورائحته..."[١١].

والرافعي، وهو دائم الإشارة إلى الطهارة في الحب في أدبه شعراً ونثراً، كقوله[١٢]:

قلبي هو الذّهبُ الكريـ
ـمُ فلا يفارقُه رنينُهْ
قلبي يحبُّ وإنّما
أخلاقُه فيه ودينُهْ
الحبُّ أُفقٌ طاهرٌ
ما إنْ يُدَنّسُهُ خؤونُهْ

وقوله: "الحب إحدى كلمتين هما ميراث الإنسانية، وهدية التاريخ، والطرفان اللذان تلتقي عندهما السماء بالأرض..."[١٣].

● تنظر المرأة بقلبها إلى أشياء لا تراها بعينها.

الرافعي

وقد كانت صورة المرأة الحبيبة عند الرافعي تجسيداً لمفهوم الحب الإنساني العفيف عنده، وهذا يظهر جلياً في تحليله لشخصية هذه المرأة أو لجمالها الحسي، أو في خطابه لها، أو في رسائله إليها.

والحبيبة عنده ليست تمثالاً جميلا- وهو ذواقة الجمال الأول- ولا هي منظر رائع يُتَمَتَّعُ بفتنته وسحره- ومَنِ الشاعرُ المرهف إلاّ يَكُنْهُ الرافعي؟!- وإنما هي عون على أعباء الحياة، وشقيقة الروح، ورفيقة النضال، وإنما الجمال والسحر عندها في تصوره كونها قوة له وسنداً وسبباً من أسباب الحياة السديدة القويمة؛ لذلك يقول: "إذا رأيت رجلاً موفقاً فيما يحاوله، مسدد الخطا إلى الهدف الذي يرمي إليه فاعلم أن وراءه امرأة يحبها وتحبه"[١٤].

ولاغرو أن تكون فلسفة الحب والجمال الرافعية الصادقة المستمدة من الدين الإسلامي الحنيف قد بسطت أجنحتها على عدد من النساء اللواتي وجدن فيها الرجولة الطاهرة والأخلاق الباهرة، ومنهن الأدبية الشاعرة (مي زيادة) التي يقال: إنها أحبت الرافعي وأحبها حباً عفيفا قدم للأدب العربي- كما مر- تلك الروائع الرافعية النادرة، والدليل على شغفها بحبه تلك الرسائل التي جمعها في (أوراق الورد) والتي نشرت مي بعضها في كتبها، وكلمة (سيدي) التي كانت تخاطبه بها، كما كانت تلمح إلى تلك الضغوط التي تتعرض لها من الذين كانوا حولها ومن أهلها وأقاربها خوفاً من تأثير الرافعي الذي عرف بتمسكه الشديد بإسلامه، فتقول له: "لي بك ثقة موثقة... سأدعوك

أبي وأمي، متهيبة فيك سطوة الكبير وتأثير الآمر، وسأدعوك قومي وعشيرتي، أنا التي أعلم أن هؤلاء ليسوا دواماً بالمحبين... وسأطلعك على ضعفي، واحتياجي إلى المعونة، أنا التي تتخيل فيّ قوة الأبطال ومناعة الصناديد!..." (١٥).

المرأة .. زوجةً

تمثل الزوجة عند الرافعي المرأة في أنوثتها وفنونها النسائية الفردية، ولكنها تفوق المرأة العادية في ثبات وجودها في حياته، وبقائها فيها وحدها دون غيرها، وأن الاعتبار لها وحدها، ولها وحدها الوقت كله، وهذا يظهر بوضوح في حياة الرافعي الخاصة، فزوجته هي مستودع أسراره التي كان يطلعها على كل رسالة وكلمة تبادلها مع حبيبته، وكل ما أتى به الرافعي في ذلك كان بمشورتها وتحت رعايتها، وكيف لاترعى هذا الحب وقد عرفت غاياته النبيلة، وأهدافه السامية، ناهيك عن كونها أماً لأولاده، وتظهر عاطفته وتقديره للزوجة في مثل قوله(١٦).

فحسبكِ نبلاً قالةُ الناس أنجبتْ
وحسبُك فخراً أن يصونَك بابُ
لكِ القلبُ من زوجٍ وولْدٍ ووالدٍ
وملكٌ جميع العالمينَ رقابُ
لم تُخْلَقي إلا نعيماً لِبَائس
فمن ذا رأى أن النَّعيمَ عذابُ

ويرى دائماً البيت قائماً على ركنين هما الزوجان، فهو يعدها إحدى دعامتين لاغنى لإحداهما عن الأخرى، إضافة لكونها زينة الحياة فيقول(١٧):

والعمرُ نهرٌ ترى من
حوادثِ الدهرِ طينَهْ
وشاطئاهُ قرينُ
قد قابلتْهُ قرينَهْ
هذا تُشَاد به الدارُ
وهي للدار زِينَهْ

بعض قضايا المرأة الاجتماعية في أدبه

عرف الرافعي بمشاركته الواسعة في المسائل التي كانت تطرح على بساط البحث في مجتمعه، كما عرف بنشاطه الكبير في ميدان النقد الأدبي، واشتهر بصولته وقوة جدله وغلبته لخصومه، ولعل كتاب (وحي القلم) سجل حافل بكثير من تلك القضايا مثل: الإرث، والمهر، وتبرج المرأة وتعلمها، وتعدد الزوجات، والحجاب. وسنتناول هنا قضية حجاب المرأة والميراث:

المرأة .. والحجاب

تبنى الرافعي الفكرة الإسلامية في هذه القضية المهمة، فراح يشرح فلسفة الحاجة إلى الحجاب والحكمة منه، فصرح بأ ن الفطرة الغريزية لدى الرجل والمرأة في ميل كل منهما إلى الآخر ميلاً طبيعياً قد تجرّ- إذا لم تقيد وتضبط بضوابط الحقوق والواجبات- الويلات الاجتماعية على الناس، وهذه الفكرة نجدها مبثوثة في (وحي القلم) في مواضع عديدة كقوله في (فلسفة الطائشة): " لهذا يمنع الدين خلوة الرجل بالمرأة، ويحرم إظهار الفتنة من الجنس للجنس، ويفصل بمعاني الحجاب بين السالب والموجب، ثم يضع لأعين المؤمنين والمؤمنات حجاباً آخر من الأمر بغض البصر، إذ لايكفي حجاب واحد، فإن الطبيعة الجنسية تنظر بالداخل والخارج معاً، ثم يطرد عن المرأة كلمة الحب إلا أن تكون من زوجها، وعن الرجل إلا أن تكون من زوجته... وكل ذلك لصيانة المرأة، مادامت هي وحدها التي تلد، ومادامت لاتلد للبيع..."(١٨).

ثم يتناول الرافعي كتاب قاسم أمين في (تحرير المرأة) بالرد على آرائه التي بناها على استنباطات خاطئة من النصوص، وعلى تأويل للقرآن لاينفذ إلى حقائقه ولايستبطن أسرار عربيته كما قال، ويرى في مقاله (تربية لؤلؤية)(١٩) أن الحجاب حفظ لروحانية المرأة، وصون من التبذل الممقوت، وهو

تربية عملية على طريقة استحكام العادة لأسمى طباع المرأة وأخصها: الرحمة. هذه الصفة النادرة التي يقوم المجتمع الإنساني على نزعها والمنازعة فيها مادامت سنة الحياة نزاع البقاء، فيكون البيت اجتماعاً خاصاً مسالماً تحفظ المرأة به منزلتها، وتؤدي فيه عملها، وتكون مغرساً للإنسانية وغارساً لصفاتها معاً، وينعى على الضعفاء الذين يعرفون ظاهراً من الرأي لايدركون مذهبه، ولايعرفون معنى الحجاب إلا في القماش والكساء.

ويرى في مقالة (س.أ.ع)[٢٠] أن الحجاب رمز لعاطفة الأمومة لأنه رمز الأمانة لمستقبل المرأة، ورمز الفصل بين ما يَحسن وما لايحسن، ولأنه وراء صفاء روحها الذي تخشى أن يكدر، وثبات كيانها الذي تخشى أن يُزعزع، ثم يسوق قصة كاتبة إنكليزية جاءت إلى مصر وأقامت أشهراً تخالط النساء المتحجبات، وتدرس معاني الحجاب، فلما رجعت إلى بلادها كتبت مقالاً عنوانه: (سؤال أحمله من الشرق إلى المرأة الغربية) قالت في آخره: " إذا كانت هذه الحرية التي كسبناها أخيراً، وهذا التنافس الجنسي، وتجريد الجنسين من الحجب المشوقة الباعثة التي أقامتها الطبيعة بينهما، إذا كان هذا سيصبح أثره أن يتولى الرجال عن النساء، وأن يزول عن القلوب كل ما يحرك فيها أوتار الحب الزوجي، فما الذي نكون قد ربحناه؟ لقد- والله- تضطرنا هذه الحال إلى تغيير خططنا، بل قد نستقر طوعاً وراء الحجاب الشرقي، لنتعلم من جديد فن الحب الحقيقي".

المرأة .. والميراث

هذه القضية هي إحدى الشُّبَه التي تُطلق للنيل من إحدى مزايا البناء الاجتماعي المحكم للإسلام، وهي تدل غالباً على جهل مطبق بعدالة توزيع الوظائف الاجتماعية في هذا الشرع الحنيف، وللرافعي في هذا المجال مقالة خاصة تحدث فيها عن (المرأة والميراث)[٢١] رداً على محاضرة كتبها سلامة موسى عن مساواة المرأة بالرجل في الميراث، وقد صرح فيها بأن تقليد أوربا هو الطريق الأصلح في رأيه، وأن الطبقة الغنية في الأمة هي التي تقرر ديانة الأمة... إلى غير ذلك، وهذا ألجأ الرافعي إلى أن ينعى عليه تقليده الأعمى، وعدم فهمه للدين الإسلامي، فضلاً عن تطفله بذاك الاقتراح مع قصر نظره في أمور الاجتماع، فيقول: "إن ميراث البنت في الشريعة الإسلامية لم يقصد لذاته، بل هو مرتب على نظام الزواج فيها،... فإن قلت كما يقول سلامة موسى: إن في الحق أن تنفق المرأة على الرجل، وأن تدفع له المهر، ثم تساويه في الميراث، قلنا: إذا تقرر هذا، وأصبح أصلاً يعمل عليه بطل زواج الفقيرات، وهن سواد النسوة؛ إذ لايمكن ما يمهرن به، ولاما ينفقن منه، وهذا ما يتحاماه الإسلام، لأن فيه فساد الاجتماع وضياع الجنسين جميعاً، وهو مفضٍ بطبيعته القاهرة إلى جعل الزواج للساعة ولليوم وللوقت المحدود... ولإيجاد لُقَطاء الشوارع، بدلاً من أن يكون الزواج للعمر وللواجب ولتربية الرجل على احتمال المسؤولية الاجتماعية بإيجاد الأسرة وإنشائها والقيام عليها والسعي في مصالحها،... وما نساء الشوارع ونساء المعامل في أوربا إلا من نتائج ذلك النظام الذي أصبح مقلوباً، فهن غلطات البيوت المتخربة والمسؤولية المتهدمة، وهن الواجبات التي ألقاها الرجال عن أنفسهم، فوقعت حيث وقعت!" [٢٢].

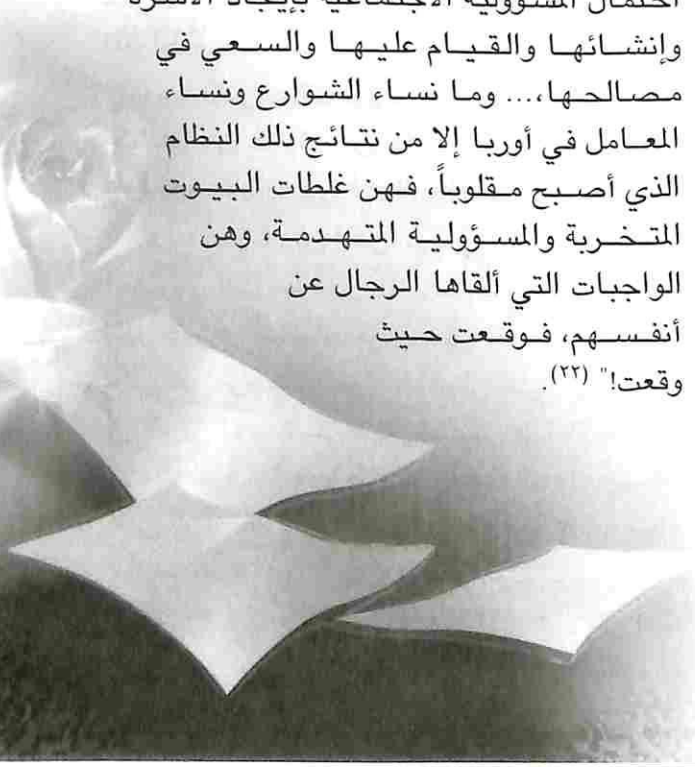

ثم يوضح أن الدين يقوم في أساسه على تربية أخلاقية عالية، فهو يربأ بالرجل أن يطمع في مال المرأة، ويأمره أن يدع لها رأيها وعملها في أموالها، لاتحد إرادتها بعمله ولا بأطماعه ولا بأهوائه، ثم يقول: "وإذا انزاحت مسؤولية المرأة عن الرجل انزاحت عنه مسؤولية النسل، فأصبح لنفسه لا لأمته، ولَعَمَّ هذا المسخُ الاجتماعَ، وأسرع فيه الهرم، وأتى عليه الضعف...، ثم إن هناك حكمة سامية، وهي أن المرأة لاتدع نصف حقها في الميراث لأخيها يفضلها به إلا لتعين بهذا العمل في البناء الاجتماعي: إذ تترك ما تتركه على أنه لامرأة أخرى، هي زوج أخيها، فتكون قد أعانت أخاها على القيام بواجبه للأمة، وأسدت للأمة عملاً آخر أسمى منه بتيسير زواج امرأة من النساء، فأنت ترى أن مسألة الميراث هذه متغلغلة في مسائل كثيرة، لامنفردة بنفسها، وأنها أحكم الحكمة إذا أريد بالرجل رجل أمته وبالمرأة امرأة أمتها، فأما إذا أريد رجل نفسه وامرأة نفسها، وتقرر أن الاجتماع في نفسه حماقة، وأن الحكومة خرافة، وأن الأمة ضلالة، فحينئذ لاتنقلب آية الميراث وحدها، بل تنقلب الحقيقة"[٢٣].

ويسخر بعنف من سلامة موسى عندما يكشف عن غايته من تناول موضوع ميراث المرأة ومساواته بميراث الرجل في إغراء الشبان بالزواج ممن ورثن أكثر، فيقول: "ومما تشمئز له النفوس الكريمة قول المترجم في محاضرته: (فلو كانت الفتيات يرثن مثل إخوتهن الذكور لكان في ثروتهن إغراء للشبان على الزواج...) إن الدين الإسلامي لايعرف مثل هذا الإسفاف في الخلق، ولا يقره، بل هو يهدمه هدماً، ويوجب على كل رجل أن يحمل قسطه من المسؤولية مادام مطيقاً إن كره أو رضي، ولعمري إن تلك الكلمة وحدها من كاتبها لهي أدل من اسم المحل على بضاعة المحل..."[٢٤].

خصائص أدب المرأة عند الرافعي

١- يمثل الرافعي في أدبه التيار الإسلامي الأصيل، ويتمثل فيه المفاهيم والحلول الإسلامية لمشاكل المجتمع والإنسان، ويتجلى ذلك في أدب المرأة الاجتماعي والعاطفي بشكل خاص، ويفسر ذلك فكرة (الجهاد في سبيل الله) في أدبه التي كانت شعاره في حياته، تحقيقاً لقولة والده الشيخ عبد الرزاق الرافعي في أن ما هو عليه جهاد في سبيل الله[٢٥] . أحس الرافعي أن عليه واجباً كبيراً قد لايدرك تبعته بعض معاصريه، وأن ذلك الواجب قد يكون مذهباً جديداً في تجديد الفكر العربي بالعطاء العقلي والأساليب والأسلحة نفسها: فكان نقده العنيف لدعاة الانحلال بجميع أنواعه في المجتمع واللغة والدين والسياسة وغير ذلك، وكانت موضوعات الحب وفلسفة الجمال بياناً لِرِقَّة الإسلام وإظهاراً لسمو معتقداته.

٢- يستخدم الرافعي في كتاباته العاطفية وغيرها أسلوب التحليل والشرح والإيضاح، ويرى أنور الجندي أن سبب ذلك هو "النقص الطبيعي في حاسة سمعه كان يدفعه إلى أن يداور المعنى ليسلس له، أو ليجعله أشد وقعاً في أذن القارئ وفي نفسه"[٢٦] وهذا صحيح، لكن السبب الأول يرجع إلى تمكن الرافعي من أدبه، وإلى ماعرف عنه من اتصاله الوثيق بكتب التراث، حتى كان أسلوبه أقرب ما يكون إلى عصور الأدب العربي الأولى، وحتى أطلق عليه لقب: "إمام البيان" و"جاحظ العصر".

٣- يتميز الرافعي في تلك الكتابات باستخدام الرمز، وكثرة الاحتفاء باشتقاق المعاني وتركيب الأخيلة، وقد حفل أسلوبه بالعبارة البيانية يجريها في نسق جميل تلد فيه البلاغة العربية عهداً جديداً في الكتابة والأدب، وهذا الرمز المبدع قد جعله يُتَّهم بالغموض وخصوصاً من طه حسين.

٤- يصب موضوعه في قالب قصصي مشوق، وهذا الأسلوب يتجلى في كتاباته عامة، ومنها مايخص المرأة مثل: الأجنبية، الجمال البائس، الطائشة، فلسفة المهر، التربية اللؤلؤية، موت أم، في اللهب ولاتحترق، احذري... وغيرها كثير.

٥- مشابهة أسلوبه أساليب الفصحاء من العرب، وتأثره العميق بالقرآن الكريم والحديث الشريف، ويبدو من خلال ذلك فهمه العميق لهذين المصدرين، واستيعابه لأسرار اللغة العربية ودقائقها.

وبعد، فهذه محاولة للاطلاع على أدب الرافعي لا أكثر، وهي إذ تضرب أمثلة وتعطي نماذج لاتعدو أن تلقي نظرة على قمة سامقة من قمم أدبنا العربي، وما هي إلا صبابة على مائدة عامرة غنية، بل إلماعة إلى خاصة من خصائص الرافعي الفذ في موهبته، السامي في فنه ومرتبته، ولو قدر للمرء أن يغوص في لجج تلك الخصائص ويعاود التنقير في مناجمها لعثر فيها على عروق التبر وكرائم اليواقيت من كل حجم ولون دون جهد أو كلال. ■

الهوامش:

(١) وحي القلم، ضبط وتعليق العريان، بيروت، دار الكتاب العربي، ١/١٣٠-١٣١.
(٢) وحي القلم ١/١٣١.
(٣) وحي القلم ١/١٣١-١٣٢.
(٤) وحي القلم ١/١٣٩-١٤٠.
(٥) ديوان الرافعي، القاهرة، المطبعة العمومية، ١٣٢١هـ، ٢/٤٥.
(٦) حديث القمر ١٠٩.
(٧) وحي القلم ١/١٥٣، ١٥٥.
(٩) المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر، أنور الجندي، القاهرة، مطبعة الرسالة، ١٩٦١م. ٤٦٢.
(١٠) أوراق الورد، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٧، ١٩٨٢م، ٢٧.
(١١) أوراق الورد ٢٨.
(١٢) السحاب الأحمر، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٨، ١٩٨٢م، ٢٠- ٢١- ٢٢.
(١٣) حديث القمر ١٢٦، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٧، ١٩٧٤م.
(١٤) حياة الرافعي، العريان، القاهرة، المكتبة التجارية، ط٣، ١٩٥٥م، ٥٩.
(١٥) ظلمات وأشعة ٧٣. وانظر الرسالة نفسها ند الرافعي في أوراق الورد ١٢٩، وقارن كتاب الأديبة مي زيادة بكتب الرافعي الأخرى، ويبدو أن ميا تأثرت بالرافعي كثيراً وأعجبت به وبأدبه إعجاباً شديداً وقد تعرضت لضغوط شديدة أودت بها إلى دخول مصح نفسي، في الوقت الذي كان فيه الرافعي يخوض بحبها إحدى معاركه الظافرة التي أراد أن يثبت من خلالها رقة الإسلام وسماحته، ويرد كثيراً من الشبه التي أثيرت حوله.
(١٦) ديوان الرافعي ٢/٣٨.
(١٧) ديوان الرافعي ٢/٤٤.
(١٨) وحي القلم ١/١٨٥.
(١٩) وحي القلم ١/١٩٢.
(٢٠) وحي القلم ١/٢٠٤ - ٢٠٥.
(٢١) وحي القلم ٣/٣٩٣ - ٣٩٤.
(٢٢) وحي القلم ٣/٣٩٤ - ٣٩٥.
(٢٣) وحي القلم ٣/٣٩٥ - ٣٩٦.
(٢٤) وحي القلم ٣/٣٩٦.
(٢٥) الإمام مصطفى صادق الرافعي ٢٤٧، مصطفى نعمان البدري، بغداد، دار البصري، ١٩٦٨م.
(٢٦) المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر ٤٦٣.

من للمحب ومن يعينه ... والحب أهنؤه حزينه!
أنا ما عرفت سوى قساوته ... فقولوا كيف لينه؟
إن يقض دين ذوي الهوى ... فأنا الذي بقيت ديونه
قلبي هو الذهب الكريم ... فلا يفارقه رنينه
قلبي هو الألماس: يعرف من أشعته ثمينه
قلبي يحب وإنما ... أخلاقه فيه ودينه

مصطفى صادق الرافعي